جدال في وادي الدموع

في ظلام الليل والأنس هجوع سرت وحدي عابرا وادي الدموع
لم يكن لي مؤنس في وحدتي غير حزن صامت طي الضلوع
كنت أمشي غير دار وجهتي ومرامي لا ولا كيف الرجوع
عضني في القلب ناب الوحشة وعراني البرد في تلك الربوع
وإذا بي فجأة في خيمة عند نار وطعام بعد جوع
وغفا البدر بحضن الليلة مثل طفل في سكون وخشوع
يخلب الألباب سحر اللوحة مريم في حضنها الطفل يسوع
أغمضت جفني كف الغفورة ونجوم الليل حولي كالشموع
أحكمت اغلاق باب اليقظة فتحت جنات أحلام تضوع
هو ذا شيخ مهيب الطلعة في حوار مع شاب وجدال
هو شيخ في جلال القلعة وهو شاب ذو مزايا وخصال
هاك بعضا من جدال الرفقة خذه كالشهد وكالماء الزلال

في الصباح

: الشيخ

طلع الصبح على دنيا الشرور ناشرا فوق الذرا آية نور
ومحا بالنور آثام الدجى معلنا أن في السما رب غفور
ودعا الناس إلى كهف التقى كي يفوزوا بالرضى يوم النشور

: الشاب

ضحكت في الأرض أنواع الزهور وشدت في الجو أسراب الطيور
وصحت ترقص في النور الدنى بابتهاج وسرور وحبور
سكر الصبح ونادى في الورى أسكروا القمر بأنهار الخمور

: الشيخ

ليس لي في هذه الدنيا سرور هي وهم وسراب وغرور
كلما فكرت في آثامها هزني الشوق إلى صمت القبور

: الشاب

هذه الدنيا سرور وحبور هي عرس وصبابات ونور
كلما فكرت في لذاتها تقت للعيش إلى يوم النشور

: الشيخ

هـــــذه الـــــدنيا فـــــراش الســـــقم أن تطـــــل طالـــــت ليـــــالي الألـــــم
أبعـــــد العينـــــين عـــــن أغوائهـــــا تبتعـــــد عـــــن مـــــر كـــــأس العلقـــــم

: الشاب

إننـــــي ســـــكران يجـــــري فـــــي دمـــــي خمـــــرة العشـــــق كنهـــــر مضـــــرم
الرمـــــاح الســـــمر فـــــي أهـــــدابها ســـــتريني الويـــــل إن لـــــم أغـــــرم

: الشيخ

أســـــخف الأشـــــياء عقـــــل المغـــــرم يســـــهر الليـــــل لعـــــد الأنجـــــم
وينـــــام الصـــــبح فيمـــــا ناســـــها يركضـــــون الصـــــبح نحـــــو المغـــــنم

: الشاب

لا تلـــم يـــا شـــيخ قلـــب المغـــرم لـــو تعلمـــت الهـــوى لـــم تلـــم
هـــــي لـــــيلاي وإنـــــي قيســـــها ســـــأغني حبهـــــا فـــــي مـــــأتمي

: الشيخ

لـــــيس يغـــــويني كـــــذوب الفتنـــــة عـــــاد رشـــــدي بعـــــد شـــــيب اللمـــــة
الهـــــوى والحســـــن وهـــــم كـــــاذب اســـــتمع مـــــا قلـــــت وأعقـــــل حكمتـــــي

: الشاب

أن غـــــدا المجنـــــون رهـــــن التربـــــة فهـــــواه خالـــــد فـــــي شـــــرعتي
والجمـــــال المشـــــتهى ليلـــــى التـــــي جـــــن منهـــــا الآن يكـــــوي مهجتـــــي
في الليل

: الشيخ

قـــد أطلـــت الصـــمت هيـــا للكـــلام اســـتبقى صـــامتا مليـــون عـــام

: الشاب

لـــم أعـــد أرغـــب فـــي أي كـــلام فرجـــاء خلنـــي كيمـــا أنـــام

: الشيخ

عجبـــا يـــا لـــك مـــن شـــخص عجيـــب إننـــي ألقـــاك مهمومـــا كئيـــب

: الشاب

إننـــي فـــي هـــذه الـــدنيا غريـــب فلهـــذا أشـــتهي المـــوت القريـــب

: الشيخ

كنـــت طفـــلا مرحـــا عنـــد الصـــباح وأراك الآن تبكـــــي وتنـــــوح

كنت عند الصبح تلهو كالرياح ولبست الليل في الليل مسوح
كن رفيقي فارسا شاكي السلاح باسم الثغر على رغم الجروح
أن يكون قد حجب الليل الأقاح فشذاها في دجى الليل يفوح

: الشاب

كان قلبي بلبلا عند الصباح وغدا في الليل كالبوم القبيح
كان ديكا يملأ الدنيا صياح وتلوى الآن كالديك الذبيح
لست أدري كيف حافاه المراح وهوى مضطربا لا يستريح
كان ضحك وسرور راح راح كهباء راح في هبة ريح

: الشيخ

يا شبابا ناعما هب النسيم فهوى في هوة اليأس الذميم
لا يصيب اليأس في سود الدجى صاحب اللب وذا العقل السليم

: الشاب

كيف لا أغرق في يأس أليم وأنا من مولدي أصلي الجحيم
يأمل الإنسان في نيل المنى أمل الشيطان في نيل النعيم

: الشيخ

سكن الليل ولاح القمر وصفا القلب وطاب السمر
أسمع البلبل يشدو قائلا هي ذي الجنة يا ناس انظروا

: الشاب

عبس الليل وحل الضجر ففؤادي طي صدري حجر
أسمع البوم يغني قائلا أسعد الناس الألى قد قبروا

: الشيخ

ترقص الأشجار يشدو البلبل يعبق الورد يموج السنبل
يتثنى في المروج الجدول ويغني : يا عطاشى اقبلوا
قد جنى النحل وفاض العسل وانتهى السعي وطاب الكسل

: الشاب

نعب البوم وناح الجدول ومشى في الليل بدر أحول
أسمع الوطواط يبكي صارخا أيها الأحياء هيا ولولوا
أظلم الماضي وأعدى نسله فأدلهم اليوم والمستقبل

: الشاب متابعا

اســـأل التـــاريخ واســـتقص الزمانـــا ... هـــل رأى العـــدل علـــى الأرض مكانـــا
أم تغشـــى الظلـــم فـــي انحائهـــا ... وتـــردى العـــدل متخوفـــا هوانـــا

: الشيخ

أن يكـــن قـــد رذل العـــدل وهانـــا ... كـــل يـــوم فـــي ربانـــا وقرانـــا
فالـــه العـــدل مـــن فـــوق يـــرى ... ويـــذيق الظلـــم فـــي النـــار الهوانـــا

: الشاب

يكـــدح الكـــادح فـــي كســـر الحجـــر ... ويهـــدد الجســـم فـــي نقـــل التـــراب
يقحـــم المســـكين أهـــوال الخطـــر ... فـــي الليـــالي مســـتهينا بالصـــعاب
وأرى الميســـور مـــن يقضـــي الـــوطر ... وفـــم المنهـــوك يحظـــى بالســـراب
هـــا هنـــا الحفنـــة أعماهـــا البطـــر ... وهنـــاك الشـــعب يحيـــا للعـــذاب

: الشيخ

شـــهوة المـــال وإقبـــال البشـــر ... منظـــر الزبـــل وأســـراب الـــذباب
قحمـــوا مـــن أجلـــه هـــول الخطـــر ... وتعـــادوا كـــذئاب وكـــلاب
لـــو همـــى المـــال كمـــا يهمـــي المطـــر ... وجـــرى فـــي الأرض كـــالبحر العبـــاب
لـــن يـــروي البحـــر أطمـــاع البشـــر ... بـــل يرويهـــا غـــدا بعـــض التـــراب

: الشاب

لا تصـــدق مؤمنـــا بالمدينـــة ... فهـــي كانـــت مـــن قـــديم همجيـــة
هـــا هـــي الأهـــرام تـــروي للـــورى ... كيـــف عـــانى الظلـــم أبنـــاء الرعيـــة

: الشيخ

أجـــزل الرحمـــة يـــا رب البريـــة ... وامـــلأ الحكـــام بـــالروح النقيـــة
فملـــوك الأرض إن لـــم تهـــدهم ... أوصـــلوا الأرض إلـــى شـــر البليـــة

: الشاب

مـــن قـــديم الـــدهر يـــارب البريـــة ... كانـــت الأرض ومـــا زالـــت شـــقية
عربـــد الباطـــل فيهـــا دائمـــا ... هـــوى الحـــق علـــى الأرض ضـــحيه
مـــن قـــديم اتخنوهـــا بالقنـــا ... وحـــديثا طلعـــوا بالنوويـــة
دمـــروا المـــدن وثنـــوا بـــالقرى ... ألقمـــوا الســـكان أنيـــاب المنيـــة
قتلـــوا فيهـــا الملايـــين وقـــد ... رملـــوا أو يتمـــوا فيهـــا البقيـــة
اقتلـــوا الابـــن وخلـــوا أمـــه ... فبقـــاء الابـــن لـــلآم خطيـــة
أتريـــد الأم مـــن أبنائهـــا ... غيـــر أن يفنـــوا بحـــرب دمويـــة ؟

: الشيخ

أجـــزل الرحمـــة يـــارب البريـــة وامـــلأ الحكـــام بـــالروح النقيـــة
فملـــوك الأرض إن لـــم تهـــدهم أوصـــلوا الأرض إلـــى شـــر البليـــة

: الشاب

زرعـــوا البـــر بآفـــات الـــدمار أغرقـــوا البحـــر ببـــارود ونـــار
أعلنـــوا حـــرب نجـــوم فـــي الفضـــا جنـــدوا للحـــرب أطفـــالا صـــغار
ثـــم قـــالوا : عصـــرنا عصـــر هـــدى وعلـــــوم ورقـــــي وعمـــــار
إن عصـــــرا هـــــذه آياتـــــه لهـــو عصـــر فخـــره خـــزي وعـــار

: الشيخ

ربنـــا يـــا مـــن تـــرى فعـــل الكبـــار أجـــزل الرحمـــة مـــن أجـــل الصـــغار
وأدم رحمتـــــك العظمـــــى لنـــــا فـــي دجـــى الليـــل وفـــي نـــور النهـــار

: الشاب

شـــئت نفســـي طـــائرا حـــرا طليقـــا فـــأرادوني لهـــم عبـــدا رقيقـــا
ضـــيقوا الســـجن علـــى حريتـــي لـــم أجـــد فـــي ظلمـــة الســـجن بريقـــا

: الشيخ

إن أكـــن فـــي الجســـم مأســـورا لصـــيقا فلقـــد حلقـــت بـــالروح طليقـــا
فـــي صـــعاب الـــوعر تحـــت الظلمـــة يبصـــر النهـــر إلـــى البحـــر طريقـــا

: الشاب

ســـحت فيهـــا ضـــاربا فـــي برهـــا خضـــت لـــيلا ســـابحا فـــي بحرهـــا
عشـــت عمـــري باحثـــا عـــن ســـرها وجزائـــي الجهـــل بعـــد الســـقم

: الشيخ

لـــم أســـح فـــي برهـــا أو بحرهـــا ففـــؤادي ســـاكن فـــي ســـرها
إن قلبـــي مشـــرق مـــن نورهـــا يصـــنع الفجـــر بقلـــب الظلـــم

: الشاب

كـــم مشـــيت الليـــل والليـــل يهـــيم وجبهـــت الـــريح والـــريح ســـموم
باحثـــا عـــن مســـكن فـــوق النجـــوم ومصـــيري القبـــر بعـــد النصـــب

: الشيخ

نمـــت كـــي أحلـــم فـــي الليـــل الـــرؤوم ومنحـــت الـــريح بلبـــال الهمـــوم
عشـــت كالســـلطان فـــي كـــوخي القـــديم أرتجـــي الفـــردوس دون التعـــب

: الشاب

طـــول عمـــر المـــرء فيهـــا شـــرها وشـــيوخ النـــاس ذاقـــت مرهـــا
أه ظهـــري هـــو بـــادي أمرهـــا ثـــم يـــأتي بـــالعمى والصـــمم

: الشيخ

قصـــر الأعمـــار فيهـــا شـــرها يـــا طويـــل العمـــر طـــول عمرهـــا
حلـــوة فـــي بردهـــا أو حرهـــا وخلـــود المـــرء أســـمى الـــنعم

: الشاب

أن أعـــش مليـــون عـــام ملكـــا أحكـــم الكـــون وأجـــري الفلكـــا
وغـــدا تـــاجي الثريـــا فســـدى أن يقولـــوا بعـــد هـــذا : هلكـــا

: الشيخ

إننـــي بالحـــب أحيـــا ملكـــا أحكـــم الكـــون وأجـــري الغلطـــا
أن أعـــش مـــن بعـــد هـــذا أو أمـــت يـــا إلهـــي يـــا إلهـــي فلكـــا

: الشاب

قـــد ســـألت البحـــر فيهـــا والجبـــال وســـألت الشـــمس مـــن قبـــل الهـــلال
عشـــت فـــي الـــدنيا ســـؤالا لاهثـــا وســـأبقى فـــي ثـــرى قبـــري ســـؤالا

: الشيخ

أخبـــر البحـــر إلـــى أيـــن المـــال فتمالـــت للســـما شـــم الجبـــال
وتغنـــى فـــي البـــرى روح الجمـــال معلنـــا أن ســـبحوا رب الجـــلال

: الشاب

قـــال جـــدي : حفظنـــا فـــي الآخـــرة يـــا لـــوهم وحكايـــا ســـاخرة
أســـنلقى المرتجـــى والمشـــتهى بعـــد أن تغـــرق فينـــا البـــاخرة

: الشيخ

فـــي حنايـــا القلـــب دنيـــا ســـاحرة صـــاغها الله يكـــف قـــادره
ســـيوالي حفظهـــا للمنتهـــى يـــذبل المـــوت وتبقـــى ناضـــرة

: الشاب

يولـــد الإنســـان فيهـــا باكيـــا وطـــوال العمـــر يحيـــا شـــاكيا
كـــل مـــن أنجـــب فيهـــا وبنـــى كـــان وغـــدا أو ظلومـــا جانيـــا

: الشاب مقاطعا

خلنـــي أحـــك وأفـــرغ جعبتـــي فســـأبقى صـــامتا فـــي تربتـــي
إننـــي أخشـــى إذا مـــا مـــت أن لا يميـــت المـــوت منـــي حســـرتي
إن طفـــأ البحـــر وغطـــى ذي الـــدنى بـــدماء لا يضـــاهي دمعتـــي

: الشيخ

ارفـــع العينـــين وانطـــر لســـماء

: الشاب

لـــيس لـــي فـــي خلـــب البـــرق رجـــاء

: الشيخ

عـــن قريـــب ترســـل الســـحب بمـــاء

: الشاب

لـــيس لـــي فـــي هاطـــل الحـــزن دواء

: الشيخ

انظـــر الـــدنيا بلحـــظ ذي صـــفاء

: الشاب

لـــيس لـــي فـــي هـــذه الـــدنيا عـــزاء

: الشاب متابعا

يخطـــف المـــوت العزيـــز الغاليـــا ويـــرى الأهـــل المريـــع الـــداهيا
كـــل مـــن عـــزى وســـلى أمـــه قـــال ســـخفا وكلامـــا باليـــا

: الشيخ

شـــوكة المـــوت تـــرى أيـــن هيـــا إن ربـــي مـــات عنـــي راضـــيا
فبعيـــد المـــوت نمضـــي للســـما وهنـــاك المـــرء يحيـــا هانيـــا

: الشاب

لســـت أدري أن يكـــن ثـــم نعـــيم غيـــر أنـــي مـــوقن أنـــي جحـــيم
إن مـــن يثبـــت أن ثـــم نعـــيم فيلســـوف نيـــر اللـــب حكـــيم

: الشيخ

فـــي ابتعـــاد المـــرء عـــن رب الســـما شـــقوة الأرواح والـــتعس المقـــيم
ووجـــود الله فـــي قلـــب الـــورى جنـــة الفـــردوس والفـــوز العظـــيم

: الشاب

كـم يمـاري الشـيخ فـي الحـق الصـريح تحـت ضـوء الشـمس يسـتحلي القبـيح
يهـرب الشـيب مـن الـرأي الصـحيح لـيس يجـدي القـول فـي عقـل كسـيح

: الشيخ

اسـمع البشـرى وع الحـق الصـريح قـد فـدينا بعـد أن قـام المسـيح
سـنرى الفحـردوس مـن بعـد الضـري ونلاقـي الله فـي وجـه صـبيح

: الشيخ متابعا

قتـل الشـبان منـا التـرف فجسـم ورؤوس خـزف
لـيس فـيهم عاقـل بـل كلهـم طـائش أو سـادر منحـرف

: الشاب

وعلـى الشـيب يحـق الأسـف داؤهـم داء ومـاذا أصـف
دعـك مـنهم لا تجـادلهم ولا تـدن مـنهم أنهـم قـد خرفـوا
وانجلـى الليـل عـن الـوادي وراح وذرت أحلامـه شـمس الصـباح
وتلاشـى الشـيخ والشـاب معـا فحثثـت الخطـو فـي وجـه الريـاح
أيهـا القـارئ هـذي قصـتي تبعـث العـزم وتـدعو للفـلاح
خـذ مـن الإيمـان زاد الرحلـة بلسـم الإيمـان شـاف للجـراح
وابتسـم للصـبح امـا سـكتت شـهرزاد عـن حكايـا المـلاح